القرآن وشطحات الصوفية

بقلم: الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال

فى تفسير فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى لقوله تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) الذى قدم له فى تسجيل تلفازى قبيل الإفطار يوم ١٥ رمضان الماضى ... حمّل فضيلته كلمة (أحدا) من قوله تعالى (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) - حمّلها ما لا تحتمله حيث أضاف الجنة إلى الشركاء فى عبادة الله سبحانه فقال: «وحتى لو جعل العابد قصده من عبادته دخول جنة الله سبحانه كان بذلك من الذين أشركوا بعبادة ربهم غيره معه». وهذا كلام لم نسمعه ولم نره إلا فى كتب الغلاة والمتطرفين من الصوفية. وأصحاب المواجيد الفلسفية الوثنية. وفضيلته قد دلنا أيضا على مصدر كلامه هذا فأتى بكلام رابعة العدوية استشهادا على تفسيره هذا حيث تقول: «ما عبدته خوفا من ناره، ولا حبا فى جنته، وإنما من أجل مشاهدة وجهه الكريم». وأقول إن كل تفاسير أهل السنة لم يذهبوا أبدا هذا المذهب، وإنما غاية ما تزيد به بعضهم، أن جعلوا مراءاة الناس فى العبادة هى الإشراك بالله فى العبادة !! مع أن الآية فى السياق الذى جاءت فيه وهو أنها جاءت فى نهاية السورة (سورة الكهف) خاتمة للحديث عن الكافرين الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ثم عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين كانت لهم جنات الفردوس نزلا ... وأنه بناء على ذلك أن من أراد من الكافرين دخول الفردوس فليؤمن بالله وحده - وهذا ترغيب للكافرين ودعاء لهم من الله سبحانه، أن يتحولوا من الكفر إلى الإيمان - وأن يصل فى إيمانه إلى الثقة فى الله وإمكان البعث، والعودة إلى الله بعد الممات أى رجاء لقاء الله وتلقى الجزاء الحسن منه، وأن من وصل إلى هذا الإيقان، فليعمل

عملا صالحا خالصا لله متوجها به إليه قاطعا حبال الشرك وعبادة الأوثان التى كانت تصله بهم من قبل. وهذا يتضح لنا أكثر حينما نقرأ الآية من أولها يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه، فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) فجاءت هذه الآية الكريمة بمثابة تلخيص الطريق إلى دخول الجنة، بعد عرض حال الأخسرين أعمالا، الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، وعرض حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات. هذا المعنى هو الذى يعطيه أسلوب القرآن الذى نزل بلسان عربى مبين. وفى تفسير تلك الآية يقول الإمام الشوكانى: «.... فمن كان يرجو لقاء ربه»: الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل. والمعنى من كان له هذا الرجاء الذى هو شأن المؤمنين (فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) من خلقه سواء كان صالحا، أو طالحا، حيوانا أو جمادا، قال الماوردى: قال جميع أهل التأويل فى تفسير هذه الآية: إن المعنى لا يرائى بعمله أحدا. وأقول إن دخول الشرك الجلىّ الذى كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفى الذى هو الرياء، ولا مانع من دخول هذا الخفى تحتها، إنما المانع من كونه هو المراد (فقط) بهذه الآية [1].

فهذا أقصى ما وصل إليه تفسير بعض المجتهدين أن يكون الشرك الخفى وهو الرياء هو المراد بهذه الآية. ولم يقل أحد ممن يعتد بقولهم أن الجنة وعبادة الله من أجلها هى من الإشراك بالله الذى منعه فى هذه الآية وجعلها من عبادة الأوثان التى هى الشرك الجلى الواضح الذى جاء رسول الله ﷺ والأنبياء قبله ناهين عنه، ومبطلين له وداعين الناس إلى عبادة الله وحده والتحول عن هذا الشرك. فهذا قول كبير وتجرؤ على الله وعلى دينه بهذا القول. ونحن لا نأخذ ديننا عن الصوفية، ولا عن غيرهم، إنما ديننا مرده إلى الكتاب والسنة، كما قال ﷺ: (لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة رسوله).

---

(١) فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير جـ٣ سورة الكهف

ولننظر إلى هؤلاء الصوفية، وكلامهم فى هذا المجال لنرى أهو إيمان أم كفر؟! نجد ابن سينا يؤسس لكلام رابعة المتقدم أو الكلام الذى زور باسم الشخصية الأسطورية (رابعة العدوية) التى هى فى أغلب الآراء شخصية منتحلة لم توجد قط، ونسأل الله أن لا توجد مستقبلا!.

يقول ابن سينا: «فالزهد عند غير العارف معاملة ما، كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة، وعند العارف تنزه عما يشغل سره عن الحق، وتكبر على كل شىء غير الحق»، «والعبادة عند غير العارف معاملة ما كأنه يعمل فى الدنيا لأجره يأخذها فى الآخرة هى الأجر والثواب» وعند العارف رياضة ما، لهممه، وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليجرها بالتعويد عن جناب الغرور، إلى جناب الحق، فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يستجلى الحق لا تنازعه»، «فيتخلص السر إلى الشروق الساطع ويصير ذلك ملكة مستقرة كلما شاء السر، اطلع إلى نور الحق» (١).

فالقصد من العبادة عند هؤلاء ليس التقرب إلى الله، وطلب مرضاته وإنما تطهير لنفوسهم، وتخفيف لها من أوزارها، حتى تستطيع أن تعرج إلى الله سبحانه فتشاهده، وتراه جهرة، أو ينكشف لها نوره ويشرق عليها، وهى على الأرض، فتراه جهرة أيضا فحينئذ تؤمن بوجوده وتؤمن به، وذلك على طريق الإشراقيين من الوثنيين المجوس. فهذه الطريقة التعبدية هى طريقة أهل الوثن من اليونان، والغنوصيين أهل المعرفة من المجوس قديما، لأنهم ما كانوا يرون أمامهم رسلا يرشدونهم إلى الله وإلى دينه، فكانوا فى اليونان قبل ميلاد عيسى عليه السلام، وكانوا فى الفرس المجوس، قبل بعثة محمد ﷺ، وكان الفريقان يسلكونها للوصول إلى معرفة الله والتأكد من وجوده ولكنهم ما كانوا يصلون إلا وهما وخيالا، أو بعد اضطراب فى العقل من هذه الممارسات التى كانت تقوم على التقشف الشديد، والحرمان والزهد فى متع الحياة وطيباتها، بل والضرورى من المأكل والمشرب، وقد تستولى عليهم

---

(١) الإشارات والتنبيهات لابن سينا قسمى ٣، ٤ صـ ٨٠٠ النمط التاسع.

الشياطين فتخيل لهم أنهم رأوا الله أو شاهدوه، فيأتون ويتكلمون عنه بما هو الكفر، ويصفون الله بما لا يليق به، وكثيرا ما يعد دونه فيجعلون مع الله آلهة أخرى. فجاء الإسلاميون بعدهم من الفلاسفة والصوفية، وقرأوا هذه الخرافات بعد عصر الترجمة فى الدولة العباسية - وكان الفريقان المذكوران، لم يتأسسا التأسيس الكامل فى الكتاب والسنة - فظنوا فى هذه الفلسفة طريقا للهداية وتهيأ لهم أنها فسرت لهم كثيرا من أمور العقيدة التى لم يكونوا قد تشربوها لعجمتهم فى اللغة العربية وفى تعلم الكتاب والسنة ولم يعرفوا أنها ضد ما جاء به الدين. وقد يكونون مدسوسين علينا من الفرس لخلخلة عقيدة المسلمين وتحريفها، حتى يسقط المسلمون أمام الفرس ويستعيد الفرس مجد آبائهم.

ومارس الفلاسفة المسلمون، وصوفيتهم هذه الطقوس، من أمثال ابن سينا وابن الفارض، وابن عربى، قاصدين بها الوصول إلى اليقين بعد الشرك ولكنهم ما وصلوا كما تقدم. ويمكن أن نجد هذا الأسلوب الذى تقدم للفلاسفة والصوفية عند أفلوطين المصرى ذلك الفيلسوف الذى عاش فى الإسكندرية، وفى مكتبة الإسكندرية، فى القرن الثالث الميلادى، والذى رحل إلى فارس فأخذ من هناك المعرفة الغنوصية الفارسية والهندية، ثم استقر فى إيطاليا ومات هناك وكان نصرانيا فارتد عن النصرانية، وصار ملحدا لا يؤمن بالله، ولا يؤمن بدين ثم جاء يطلب الإيمان عن طريق الفلسفة وهذا هو الطريق عنده.

إنه يعتبر أن أرقى لذة فى الدنيا هى مشاهدة الواحد والاتصال به، وأننا حينما نكف عن الإحاطة به يحل بنا الدمار الكلى، وننعدم من الوجود، وحينما ننظر صوبه فتلك غايتنا وراحتنا؛ فى هذه الحياة العاجلة نستطيع أن نراه، وأن نرى أنفسنا بقدر ما يمكن الحصول على مثل تلك الرؤية. نرى أنفسنا ساطعين نورا، مليئين نورا معقولا .. نصير إلها متقدا حبا. تلك حياة الآلهة والبشر الإلهيين السعداء، أعنى التحرر من أشياء هذه الدنيا، والضيق بها، والهرب وحدنا إليه وحده» ويدعى بصدد ذلك أنه صعد إلى الله أربع

مرات، وأنه كان صاحب اختيار فى ذلك بعد أن تخفف فى الدنيا وأثقالها [1].

فمن هذا الاتجاه فشا فى الأوساط الفلسفية والصوفية - لدى الإسلاميين ما يسمونه (حالة مشاهدة الذات العلية) وجعلوا ذلك هو الغاية فى العبادة وسلوك الطريق الصوفى؛ وأن هذا هو منتهى اللذة ...، وأدى هذا إلى تسام مفتعل، وترفع عما وعد الله به المتقين من نعيم، وعما أوعد به العاصين من عذاب، وادعاء بأنهم صاروا فى مستوى أرقى من أن يعملوا من أجل رغبة أو رهبة، وإنما هم قد صاروا فى طريق التجريد من الماديات وطريق السمو، وفى مستوى الملائكة، فأصبحوا لا يتأثرون بوعد ولا وعيد، وإنما يتأثرون بالغاية التى إليها يسعون وهى مشاهدة (وجهه الكريم).

فمن هذا ما نسب إلى من تسمى رابعة العدوية، أنها كانت تناجى الله سبحانه وتقول: «إلهى. إن كنت عبدتك من خوف النار فأحرقنى فى النار أو طمعا فى الجنة فحرمها علىَّ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك، فلا تحرمنى مشاهدة وجهك [2]»

هذه هى حقيقة هؤلاء وهى كما نرى اتجاه مادى، وانغماس فى الإلحاد والشك جعل أصحابه لا يؤمنون إلا بما يرونه ويحسونه، وطبقوا هذا على إيمانهم بالله سبحانه، وهو قديم قدم الكفر كما أخبر الله سبحانه عن جمع ممن دعاهم موسى عليه السلام فقالوا له: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) [3]: وهو اتجاه شاع عند كثير من صوفية اليونانيين وفلاسفتهم. فلا يجمل بنا أن نفسر الوحى المنزل من عند الله بخرافة هؤلاء الشاكين الملحدين.

كما أنه لكى يستقيم لعالم الدين علمه لا بد له من أن يدرس التصوف جيدا ويعرف ماهيته ومن أين جاء، بعد أن يكون قد تشبع بروح الكتاب والسنة، وفقه نصوصهما جيدا. والله الموفق.

إبراهيم هلال

---

(١) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم الفقرة الخاصة بأفلوطين.
(٢) انظر: التصوف الإسلامى بين الدين والفلسفة لكاتب هذه السطور صـ ٦٨
(٣) سورة البقرة: ٥٥